في Hamburg وهو نواة جامعة Hamburg الحالية. وكانت المجلة التي أصدرها وهي «مجلة الإسلام» Der Islam تعد آنذاك واحدة من خيرة المجلات العلمية المختصة بالعالم الإسلامي، ومازالت المجلة إلى اليوم تتمتع بهذه السمعة.

واسمحوا لي أن أذكر هنا أسماء بعض المستشرقين المعاصرين الألمان الذين يتابعون أبحاثهم العربية والإسلامية في مختلف الميادين وهم الأساتذة والدكاترة :

Fritz Steppat, Baber Johansen (Berlin) ; Werner Ende, Albrecht Noth, Udo Steinbach (Hamburg) ; Stefan Wild, Otto Spies, Wilhelm Hoenerbach (Bonn) ; H.R. Roemer (Freiburg) ; G. Endress, Reinhard Schulz (Bochum) ; H. Singer, Martin Forstner (Mainz) ; Josef Van Ess (Tubingen) ; Wolf Fischer (Erlangen) ; E. Wagner (Giessen).

أما اليوم فعدد الطلاب الذين يختارون التخصص في ميدان الاستشراق يتزايد بصورة ملموسة رغم عدم وجود مناصب في الجامعات الألمانية للمستشرقين الشباب.

ويرجع الفضل في ذلك للاهتمام السياسي والاقتصادي الذي تخص به جمهورية ألمانيا الاتحادية منذ السبعينات الشرقين الأدنى والأوسط. ونأمل أن يزداد هذا الاهتمام بالرغم من تغير الظروف السياسية وحتى الاقتصادية.

وفي ختام هذا العرض المتواضع، علينا أن ننظر إلى المستقبل وأنا أدعو زملائي المحترمين إلى المزيد من التعاون العلمي وندوتنا هاته تشكل بدون شك خطوة في هذا السبيل.

التراث والمعاصرة

الدكتور محمود علي مكي

أستاذ بكلية الآداب ـــ القاهرة

القديم والجديد... التقليد والحداثة... الأصالة والتجديد... التراث والمعاصرة.

قضايا مافتئت تثار في الأوساط المثقفة في عالمنا العربي بين فترة وأخرى، وثار حولها الجدل، وتختلف حولها الآراء، إذ أنها تصور أزمة الثقافة في مجتمعاتنا منذ القرن الماضي حتى اليوم. وعلى الرغم من كثرة ما كتب حول هذا الموضوع فمازالت المؤتمرات والندوات تعقد حوله، وإذا كان الخلاف لايزال محتدما بين الباحثين العرب حول الحلول التي يراها كل منهم لأزمة ثقافتنا الحديثة فإن ذلك الجدل كله كان مغنيا للأفكار موسعا لدائرة البحث ملقيا ضوءا يعيننا على تبين طريقنا نحو المستقبل.

وقد كان لمصطلح «التراث» في غمرة هذا الجدل الذي يتجدد بين وقت وآخر مكان يمثل محور القضية فالذين يتحدثون عن القديم أو عن التقليد إنما كانوا يقصدون به تراث أمتنا و موروثها الحضاري أو الثقافي، والذين يتحدثون عن الحداثة أو التجديد كانوا يقصدون دائما كيفية التعامل مع هذا التراث سواء منهم الذين سيتمسكون به تمسكا شديدا أو الذين يتطرقون في رفضه والدعوة إلى تجاهله، أو المواقف الوسطية التي تتراوح بين هذين الموقفين.

ولهذا فإنه ينبغي أن نعرض في إيجاز لمدلول كلمة التراث. وهو لفظ مشتق من الأصل الثلاثي ورث. جاء في التنزيل الحكيم : ﴿وتأكلون التراث أكلا لمّا﴾، غير أن التراث هنا هو ما يخلفه الرجل لورثته من مال وهو بمعنى الإرث، وروي عن النبي ﷺ أنه بعث ابن مربع الأنصاري إلى أهل عرفة فقال : «اثبتوا على مشاعركم فإنكم على إرث من إرث إبراهيم»، ومن ذلك إشارة إلى أن الإسلام

إنما هو عودة إلى ملة إبراهيم الحنيفية وما تقوم عليه من نقاء التوحيد، فالإسلام بذلك كان وارثا وقتها ومصححا عبارات الرسالات التي أنزلت على سائر الأنبياء من قبل، فالتراث المقصود هنا هو التراث الروحي.

وحينما نستخدم مصطلح التراث اليوم فإننا نعني، كل الموروث الحضاري القديم. والحضارة في مفهومها العام هي ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان للسموّ بظروف حياته سواء أكانت هذه الثمرة مادية أم معنوية، وإذا تحدثنا عن تراثنا الحضاري في منطقتنا العربية اليوم ؛ فإننا سنرى أن الدائرة سوف تتسع اتساعا شديدا إذ أنها سوف لن تقتصر على موروثنا العربي الإسلامي بل ستمتد جذورها إلى أزمنة موغلة في القدم، إذ تضم كل الحضارات السابقة التي عرفتها شعوب بلادنا منذ فجر التاريخ من فرعونية وبابلية وأشورية وفينيقية وقرطاجية ويمنية قديمة، حتى صحاري شبه الجزيرة العربية التي كان الناس يعتقدون أنها بحكم ظروفها الجغرافية أدنى مستوى حضاريا بما يحيط بها من أقطار تكشفت في السنوات الأخيرة عن مفاجآت مدهشة، إذ تبين من الحفائر التي تمت في قرية الفاو وفي وبار أنها كانت تحت رمال الجزيرة مدن ذات حضارة عريقة، هذا فضلا عن معالم الحضارات القديمة الثمودية والصفوية والقتبانية وغيرها، وهكذا نرى أنه كما كان تراثنا الروحي مستوعبا لكل الديانات السابقة فإن تراثنا الحضاري يستوعب أقدم ما وجد على ظهر الأرض من حضارات وبهذا يكون تراثنا أغنى تراث عرفته البشرية، فهو يمتد عبر الزمان وعبر المكان امتدادا لا نظير له.

على أننا لن نتوسع في فهم تراثنا إلى هذه الحدود، وإنما سنقتصر على الحلقة الأخيرة من حلقات هذا التراث الحضاري، وهي التي تتخذ محورها من العربية لغة والإسلام دينا دون أن يغيب عن أذهاننا أن تراثنا العربي الإسلامي قد استوعب في مسيرته كل ما سبقه على نحو مباشر من ثقافات الأمم المجاورة. وإذا كان هذا التراث يشمل كل جوانب الحضارة من علوم وفنون وآداب فإننا سنضيق الدائرة أيضا فنقتصر على التراث الفكري الذي وصل إلينا في صورته المكتوبة.

هذا عن التراث فماذا عن «المعاصرة» ؟ لقد كان المفكرون والنقاد يتحدثون عن القديم والجديد منذ أوائل هذا القرن، ثم شاع بعد ذلك مصطلح الحداثة منذ نحو ربع قرن وهو يعني ببساطة النزوع إلى التجديد أي أنه سعى إلى التحول والتغير في مقابلة التقليد الذي يعني الجمود والثبات. وهذا مفهوم لم يكن غائبا

عن المفكرين والنقاد العرب القدماء، وقد فطنوا إلى أنه مفهوم نسبي مرتبط بالزمن الذي يستخدم فيه. فابن قتيبة يقول في «**الشعر والشعراء**» : «فلم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ولا خص به قوما دون قوم بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده في كل دهر وجعل كل قديم حديثا في عصره وكل شريف خارجيا في أوله» وننبه إلى هذه العبارة الأخيرة التي تتحدث عن نسبية الحداثة، وعليه لنا أن نعكسها فنقول أيضا إن كل حديث في وقته لا يلبث أن يصبح قديما حينما يمضي الزمن، أما الحداثة في المصطلح النقدي الحديث فهو على قدر غير قليل من الاضطراب، وقد اصطلح النقاد العرب لكي يقابلوا به مصطلح المودرنزم (Modernisme) و الـ Modernite وهو يشير في الأدب إلى الثورة الإبداعية التي ظهرت في أوروبا منذ منتصف القرن التاسع عشر. وكان الشاعر الفرنسي بودلير أول من قدم صياغة نظرية للحداثة تقوم على أساس مفهوم جمالي مغاير للمفاهيم القديمة وعلى نحت لغة شعرية تسعى إلى التجديد. غير أن هذه الحداثة لا تتزامن ولا تتفق في مفهومها مع الحداثة التي عرفت في آفاق أوروبية أخرى، فهناك مذهب شعري جديد أطلق عليه نفس الاسم Modernisme في العالم الناطق بالإسبانية، وهو الذي ظهر على يد الشاعر النيكاراجوي روبن داريو Ruben Dario في سنة 1888 منذ أن أخرج شيلي ديوانه «أزول Azul» على أن الحداثة الإسبانية كانت مع تأثرها بالفرنسية مختلفة عنها في تفاصيل كثيرة أسلوبية وجمالية.

وإنما ننبه إلى ذلك لأن كثيرا من النقاد العرب يصطنعوا المصطلحات الأوروبية ويحاولون فرضها على الأدب العربي بغض النظر عن اختلاف ظروف كل ثقافتنا عن ظروف الثقافة الأوروبية وعلى الرغم من أن هذه المصطلحات لم تستخدم بشكل واحد في جميع البلاد الأوروبية، مما جعل الكثيرين من النقاد في الغرب يعترضون عليها ويرفضونها، وقد تعاقبت بعد مذهب الحداثة في أوروبا مذاهب كثيرة بهذا الايقاع السريع الذي يواكب تطور الحضارة الأوروبية مما جعل تلك الحداثة تصبح الآن «عظم امتشاسن وآلة معلقة في دكان قشاسن» على صديقين لسان الدين بن الخطيب في عبارة له عن قصص فتح الأندلس.

فإذا كنا نتحدث عن الحداثة في ثقافتنا العربية فإننا نعني بها بشكل عام مسايرة التطور الموجود في عالم اليوم خلال العصر الحديث، غير أن هذا العصر الحديث يصعب تحديده إذ هو يمتد على مساحة واسعة من الزمن يمكن أن تصل إلى قرن

من الزمان، فإذا أتينا إلى مصطلح «المعاصرة» فإننا نجده أخص من الحداثة إذ هو يتضمن أيضا بعدا زمنيا ولكن في دائرة أضيق على أنه في حدود الأعوام الثلاثين الأخيرة، ولكن أي عالم هذا هو الذي ينبغي أن نواكب روح العصر فيه ؟ طبيعي أنه يفهم منه أنه العالم المتقدم في مضمار المنجزات الحضارية التي تمثلت خلال القرون الثلاثة الأخيرة في الغرب الأوروبي والبلاد التي أخذت نفسها بأسباب حضارته مثل الولايات المتحدة وروسيا واليابان، وهنا يمكن أن نلاحظ بوضوح أبعاد الأزمة الثقافية والفكرية التي نواجهها، فهذا العالم الذي نعمل على الاستفادة منه من شتى جوانب التقدم العلمي والتكنولوجي ليس عالمنا فحسب، صحيح أننا لو تأملنا جذور التقدم الأولى فإننا يمكن أن نسجل أن ما استفاده من حضارتنا وفكرنا العربيين الإسلاميين كان من مكونات تقدمه، ولكن الفجوة قد ازدادت اتساعا بيننا وبينه بسبب القرون التي كنا فيها مخلدين إلى الركود. وإذا كنا نعمل الآن على اللحاق بركب هذا العالم فنأخذ منه ما نستطيع من علم وتكنولوجيا فإنه علينا أن نعترف بأننا إنما نأخذ ثمرات منجزات في هذه الميادين، ولم تتح لنا الفرصة بعد لكي نؤصل أسس تلك المنجزات، ثم بعد ذلك كيف نوفق بين الحفاظ على موروثنا القديم الذي يمتد على مدى قرون متطاولة وبين هذا التقدم الذي يسير بسرعة مذهلة ؟

الواقع أن المشكلة ليست حديثة بل رأينا الفكر العربي يواجهها كلما التقى بثقافة جديدة يمكن أن تضاف إلى محصوله، وقد كان الفكر العربي بفضل الإسلام بطبيعته متفتحا إلى المعرفة بكل ألوانها، نجد أصول ذلك في القرآن الكريم الذي كان أول ما نزل من آياته «إقرأ، إقرأ باسم ربك الذي خلق... الخ» وفي أحاديث الرسول ﷺ الذي حث على طلب العلم أينما وجد، ولهذا فإن المسلمين لم يكادوا يحتكون بأمم لها تراث فكري علمي قديم حتى تراهم يأخذون هذا التراث كله بغير عقد ولا حواجز نفسية، وهكذا نشطت منذ القرن الأول للهجرة حركة ترجمة هائلة بلغت ذروتها في القرن الثاني في عصر الرشيد والمأمون فنقل إلى العربية تراث الإغريق وفارس والهند. ومما يستحق التنويه أن اللغة العربية استطاعت بفضل مرونتها أن تستوعب كل هذا التراث الحضاري فأوجدت مصطلحات وألفاظا جديدة تعبر عن مختلف مجالات العلوم والفنون والصناعات. وتم ذلك في يسر وسهولة حتى إنها سرعان ما أصبحت بحق «لغة الحضارة» في عالم ما يدعى في أوروبا بالعصور الوسطى. ولم ينقطع هذا المد الثقافي خلال العصور التالية مما

يدل على خطأ الفكرة الشائعة بين بعض المستشرقين من أن الفكر العربي بطبيعته يجنح إلى التقليد ويقوم على أساس نظري كونه يرى أن العالم سائر في طريق الفساد ولهذا فإنه يعارض التجديد، ولا يرى بديلا عن التمسك بآراء السلف. ولعل مما يدل على ذلك ما نجده في كتابات علمائنا القدماء من أنه يقف على رأس كل قرن فئة من المجتهدين تضطلع بتجديد الفكر في سائر المجالات. أما الفكر العلمي الذي يقوم على الشك المنهجي الإرادي وهو الذي تشيع نسبته إلى ديكارت (في القرن السابع عشر) فإننا نجده منصوصا عليه في كتابات مفكرينا القدماء من أمثال النظام والجاحظ وأبي هاشم البصري والحسن بن الهيثم.

وقد تعرضت الثقافة العربية الإسلامية خلال مسيرتها الطويلة لأخطار جسيمة منها ما ضرب عليها من حصار تمثل في الغزوات المغولية من الشرق والحملات الصليبية من الغرب، وقد أدى ذلك إلى حرص المسلمين على الحفاظ على تراثهم وجمعه، ولاسيما خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، ومن هنا ظهرت التآليف الموسوعية الضخمة التي يمثلها شهاب الدين النويري (ت 1333) وابن فضل الله العمري (1348) والقلقشندي (ت 1418) وتقي الدين المقريزي (ت 1441) وجلال الدين السيوطي (ت 1505).

بل إننا لا نسرف إذا قلنا إن تلك الحركة الموسوعية كانت أشبه بتلك التي سبقت الثورة الفرنسية وكانت موشكة على أن تؤتي أكلها في أواخر العصر المملوكي لولا الظروف السياسية والاقتصادية التي ألمت بالعالم العربي وانتهت به إلى إسلام قيادته للترك العثمانيين.

ويخطىء من يظن أن هؤلاء كانوا مجرد جامعين للمواد العلمية التراثية السابقة، فالحقيقة أن من يتأمل أعمال هؤلاء يمكنه أن يرى فيها كثيرا من أصالة الفكر والطموح إلى تجديده انطلاقا من ذلك التراث.

كذلك ربما كان من الأخطاء الشائعة في كتابة تاريخنا الثقافي أن العصور التالية ابتداءا من وقوع العالم العربي تحت حكم العثمانيين إلى الاحتكاك بالعالم الأوروبي منذ أوائل القرن التاسع عشر كانت عصور ظلام وجهل وركود مطلق، صحيح أن الفكر العربي لم يعد يمثل حيويته السابقة، ولكنه لم يخل من مفكرين أعلام كانوا قادرين على النهوض بالبعث الجديد. ويكفي أن نشير من هؤلاء إلى ستة أسماء لمعت في هذا العصر الموسوم أو الموصوم بالتخلف :

1 ــ شهاب الدين أحمد المقري الجزائري نزيل مصر والشام (ت 1631) صاحب موسوعتي نفح الطيب وأزهار الرياض.

2 ــ عبد القادر بن عمر البغدادي (ت 1683) وصاحب موسوعة خزانة الأدب التي أراد أن يرد بها الأوساط الأدبية إلى التذوق اللغوي والشعري وعلوم العربية.

3 ــ الجبرتي الكبير حسن بن إبراهيم والد المؤرخ (ت 1774) الذي اهتم بالعلوم فجمع تراثا هائلا من كتب الهندسة والكيمياء والفلك والصنائع.

4 ــ محمد بن عبد الوهاب التميمي النجدي (ت 1792) الذي ظهر في جزيرة العرب وكان همه مكافحة البدع والعقائد المخالفة للسنة واضطلع بدور كبير في تجديد الفكر الديني.

5 ــ المرتضى الزبيدي محمد بن عبد الرزاق (1790) الذي مد نشاطه من اليمن إلى مصر والهند وهو من باعثي التراث الديني واللغوي، مما يتمثل في معجمه الكبير تاج العروس.

6 ــ محمد بن علي الشوكاني الزيدي وهو ممن أراد إحياء عقيدة السلف فحارب التقليد وكان داعية لنبذ الصراعات بين الفرق الدينية المختلفة.

ولاشك في أن هؤلاء ساهموا في التحول الكبير الذي كانت الأمة العربية الإسلامية مقبلة عليه في أوائل القرن التاسع عشر والذي أسرع نتيجة احتكاكها بالحضارة الأوروبية على إثر الحملة الفرنسية.

ومن جديد نجد أن أعلام المفكرين في الأمة لم ينتبهوا إلى خطر هذا الغزو القادم من أوروبا حتى رسخ وعيهم بضرورة التغيير والتجديد، وهذا هو ما تمثل في العبارة المشهورة التي قالها الشيخ حسن العطار أستاذ رفاعة رافع الطهطاوي وذلك عند احتكاكه برجال الحملة الفرنسية «إن بلادنا لابد أن تتغير وأن يتجدد بها من العلوم والمعارف ما ليس فيها».

وكان هذا الاحتكاك بأوربا حاسما في تلك التوجهات الجديدة، فرأينا في العالم العربي بأجمعه حركات تجديدية تمثلت في نخبة من المفكرين كان منطلقهم هو الاستفادة من تلك الحضارة الأوروبية التي قطعت شوطا كبيرا في مضمار التقدم ولكن مع الحفاظ على تراثنا القديم. فقد كان هؤلاء ممن توفرت لهم ثقافة دينية

تراثية واسعة ورأوا بحكم تمكنهم من تراثنا الفكري القديم أنه لا تعارض بين هذا التراث وبين الأخذ بكل جديد نافع، ونذكر في مقدمة هؤلاء رفاعه الطهطاوي في مصر (1873) وخير الدين التونسي في تونس (1890) وجمال الدين الأفغاني في مصر والهند وتركيا (1897) وتلميذه محمد عبده (1905) وعبد الرحمن الكواكبي (1902) ثم من تأثر به في المغرب مثل الجزائري عبد الحميد بن باديس (1940).

غير أن هذه الحركة الفكرية التي عملت على تأصيل الفكر العربي وتحديثه، والتي كان يمكن لها أن توفق بين مستحدثات الحضارة وبين الحفاظ على الشخصية العربية الإسلامية، أو بتعبير آخر بين التراث والمعاصرة، تعرضت لما قطع عليها سبيل هذا التطور الهادىء السليم، إذ أن الاستعمار الأوروبي لم يرد لبلادنا أن تحقق ذلك التوازن الكفيل ببعث حقيقي، فرأينا القوتين الاستعماريتين الكبيرتين وهما انجلترا وفرنسا تتدخلان في عالمنا العربي في ضراوة قاسية فتوزعان بلادنا وتتخذانها نهبا لهما. بدأ ذلك باحتلال الجزائر في 1830 وانتهى بفرض الحماية على المغرب في عام 1912.

وأدى هذا التدخل السافر إلى طرح جديد لقضية تحديث الفكر العربي على نحو لم يسر في طريقه الأولى المعتدلة الهادئة وإنما بشكل تحايزت فيه المواقف وازدادت فيه حدة الحوار وعنفه. وهكذا أصبحت القضية مواجهة بين التراث العربي الإسلامي والمعاصرة، وكأن الأمرين ضدان يقفان على طرفي نقيض، وقد اجتهد الاستعمار في سياسته الخشنة على توسيع هوة الخلاف وعلى أن يصبح فكر أمتنا موزعا على شيع متصارعة متنابذة نازعة إلى أقصى درجات التطرف.

ويمكن أن نحدد في معالجة تلك القضية ثلاثة مواقف :

ــ الأول موقف المتمسكين بالتراث تمسكا يصل إلى رفض كل جديد (رجال الدين).

ــ والثاني موقف الذين انبهروا بالحضارة الأوروبية فأرادوا تقليدها في كل شيء حتى إنهم أرادوا أن يقطعوا ما بينهم وبين التراث جملة (سلامة موسى، لويس عوض).

ــ والثالث موقف المعتدلين الذين واصلوا مسيرة المجددين الأولين، وهؤلاء كانوا يتفاوتون فيما بينهم قربا إلى هذا المحور أو إلى ذاك.

ولاشك في أن الطريق القويم في علاج هذه القضية هو ذلك الطريق الوسط الذي يعمل على الأخذ بأسباب المعاصرة أي مسايرة عصرنا الحاضر في تقدمه، والأخذ عن القرن الأوروبي ما أضافه إلى عالم المعرفة ولكن بغير تنكر لتراثنا، فإن في هذا التراث من الإيجابيات ما يمكن أن يضاف إلى ما نطمح إليه من تقدم علمي ينبغي أن يوضع في خدمة الإنسانية. ولعل أهم ما نستطيع أن نستخلص من تراثنا شيئان :

أولهما التوازن بين عقلانية العلم وما ينبغي أن يقوم عليه من قيم خلقية وروحية. وهو ما نفتقده في كثير من الأحيان في ذلك التقدم العلمي والتكنولوجي الذي يسير في عالم اليوم بسرعة مذهلة. فبغير هذه القيم يمكن للعلم أن يتحول إلى أداة جهنمية للتدمير والخراب.

والثاني شمولية المعارف، وذلك أن التخصص الدقيق الذي كان من نتائج التقدم الهائل في العلوم واتساع دائرتها قد كانت له نتائجه السلبية ومن أخطرها أن العالم المتخصص قد تحول في كثير من الأحيان إلى مجرد ترس في آلة هائلة صماء، هذا بينما لو تأملنا ما كان عليه المشتغلون بالعلوم من تراثنا العربي لوجدنا أن العالم كان موسوعي المعرفة يحيط بكثير من فروع العلوم المختلفة على نحو يجعله أكثر إحساسا وتفاعلا مع نبض من يعايشه من البشر. ويكفي أن نشير إلى علماء مثل ابن رشد الذي كان فيلسوفا وطبيبا وفقيها وابن زهر الذي كان طبيبا وشاعرا وأديبا وابن طفيل الذي شارك في كل معارف عصره.

أما كيفية التعامل مع التراث العربي في عالم اليوم فإنه ينبغي أن نذكر أولا أن جانبا كبيرا من هذا التراث لايزال حتى اليوم مجهولا. صحيح أن الجهود التي بذلت في خدمته كانت كبيرة. وهنا ينبغي أن نعترف بفضل العلماء الأوروبيين الذين كانوا أسبق منا في الاهتمام بنشره منذ القرن السادس عشر. وقد بدأنا نحن في العالم العربي منذ أواسط القرن التاسع عشر في الاهتمام به وكان ذلك بفضل ذلك الرعيل الأول من مجددي الفكر العربي فبدأت حركة النشر في مصر والشام أولا ثم تراها اليوم قد امتدت على طول العالم العربي كله. ومع ذلك فإن المخطوطات العربية يبلغ عددها 3 ملايين لم ينشر حتى الآن إلا الأقل من ثلثها. وهي نسبة لا تمكننا حتى من الحكم على قيمة هذا التراث حكما صحيحا. فواجبنا الأول هو تجميع هذا التراث الذي نراه مفرقا في مكتبات العالم كله، وهنا يكون

التقدم التكنولوجي الذي يشهده العصر معينا على تيسير هذه المهمة، إذ بفضل التصوير والطرق الحديثة للفهرسة والعناية بترميم المخطوطات وتيسير التبادل بين المكتبات والمؤسسات العلمية يمكن أن توضع خطط بجداول زمنية محددة لنشر ذلك التراث نشرا سليما. ومن ناحية أخرى فإن التحقيق العلمي قد تقدم كثيرا خلال السنوات الأخيرة في العالم العربي، فقد كان عدد المحققين المجيدين في أوائل هذا القرن لا يزيد على بضع عشرات. أما اليوم فهناك مئات من المحققين المجيدين في رقعة العالم العربي كله فضلا عن من يشتركون معنا في الاهتمام بتراثنا من أصدقائنا المستشرقين، كما أن مراكز الطبع قد تزايدت تزايدا ملحوظا يبشر بمستقبل مشرف.

وأود بهذه المناسبة أن أشير إلى نقطة تثار كثيرا هذه الأيام من قبل كثير من المهتمين بالتراث العربي، وقد كانت موضوعا لندوة كانت مقامة في الرياض منذ أيام قليلة وكان عنوانها «ما نأخذه من التراث وما نتركه» ذلك أن الانتقاء من التراث إذا ترك لهوى هذا أو ذاك من الناس قد يتحول عدوانا على ذلك التراث، والواجب ألا يتم الانتقاء إلا بعد أن ينشر التراث كله، فلا ينبغي أن نترك الأمر لمعايير قد يصنفها أناس غير مؤهلين للحكم على تراثنا الماضي فلا يبعد أن يشوهوه أو يبتروه أو يخضعوه لأدواتهم الخاصة. ولنا عبرة فيما اقترح البعض مما سموه تهذيب أعمال فكرية أو أدبية لها قيمة كبرى مثل الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني أو الفتوحات العربية لابن عربي أو إحياء علوم الدين للغزالي أو ألف ليلة وليلة. وأذكر بهذه المناسبة عبارة قالها سيرفانتيس في روايته الخالدة دون كيخوت : «ليس هناك كتاب رديء إلا وفيه شيء جيد»، ومن هنا أقول إنه ينبغي أن نكون على حذر شديد قبل أن تمتد أيدينا إلى التراث، ولا أقول ذلك من منطلق تقديسه أو التعبد به وإنما أقول إننا لا نستطيع أن نتصرف في ذلك الموروث الثقافي إلا بعد أن نعرفه معرفة عميقة ونتمكن من تقويمه على أسس سليمة.